

القراءة الحدائرية للسنة النبوية عند محمد "أبو" القاسم حاج حمد

Mohammed Abu Al-Qasim Hadj hamed's modern interpretation of the Sunna nabawiya

زينب عبد العزيز¹

مخبر العلوم الإسلامية في الجزائر

كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، الجزائر

zineb.abdelaziz@univ-batna.dz

أ.د فؤاد بن عبيد

كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، الجزائر

fouadbenabid@yahoo.com

تاريخ الوصول 2021/05/01 القبول 2021/09/21 النشر على الخط 2021/12/15

Received 01/05/2021 Accepted 21/09/2021 Published online 15/12/2021

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إبراز المداخل والمحددات المنهجية لقراءة السنة النبوية وفق نظرة المفكر محمد "أبو" القاسم حاج حمد، وقد تم اتباع المنهج الوصفي لملاءمته وطبيعة الدراسة، ولهذا فقد تعرضنا في البداية لمفاهيم أساسية وهي: التعريف بحاج حمد، ثم مفهوم القراءة الحدائرية، وبعدها السنة النبوية، وبيننا أن القراءة الحدائرية هي ضرورة منهجية أفرزها القرآن الكريم نفسه، وتطرقنا على إثرها لعلاقة القرآن بالسنة من خلال إطلاقية القرآن ووضحنا بأن السنة بيان للقرآن ولا يمكن أن تكون ناسخة له، ثم تناولنا الضوابط المنهجية لقراءة النص الحديثي من خلال مطابقة ومقارنة لغة النبي بلغة القرآن المرجعية، وتعرضنا أخيرا لقيمة السنة النبوية القولية والفعلية والصامتة، وخلصنا إلى جملة من النتائج أهمها: أن حاج حمد لا ينفي السنة بل يحاول ضبطها وفق القراءة الكلية التوحيدية التي يدعو إليها القرآن الكريم من خلال الترتيب التوقيفي الذي استقر عليه، هذه القراءة التي تجعل من النص القرآني حكما ومرجعا لصحيح السنة.

الكلمات المفتاحية: السنة النبوية؛ القرآن الكريم؛ القراءة الحدائرية؛ المنهجية؛ محمد أبو القاسم حاج حمد.

Abstract:

This article aims to clarify the methodological rules developed by Hadj Hamed to understand and interpret the Sunna, by following the descriptive methodology. Therefore, we have addressed the study according to the following topics:

First, we explained the basic concepts in this research, and then, we talked about the relation between the Quran and Sunna, and we have made clear that the Sunna explains the Quran. After that, we explained the methodological rules for interpretation the Sunna, and we mentioned the importance of the Sunna in its three types.

Finally, the research finished with a conclusion, which explained that Hadj Hamed did not deny the Sunna, but he focused on adjusting the understanding of it.

Keywords: Sunna nabawiya; Holy Quran; modern interpretation; Methodology; Mohammed Abu Al-Qasim Hadj Hamed.

البريد الإلكتروني: zineb.abdelaziz@univ-batna.dz

¹ - المؤلف المراسل: زينب عبد العزيز

1. مقدمة:

جعل القرآن كتاباً مطلقاً خالداً مرافقاً للإنسان عبر الزمان والمكان، ومتفاعلاً مع مختلف الأنساق الحضارية والثقافية والدينية والمعرفية، وقابلاً للتدبر والتأمل وفق ما وصل ويصل إليه العقل البشري من معارف وعلوم ومناهج، وقد تناولها الباحثون منذ نزوله وإلى الآن بالدرس والتحليل، وظهر في العقود الأخيرة دارسون للقرآن الكريم يُطلق عليهم الحداثيون؛ وهم صنفان؛ فمنهم من هو مستنسخ للمذاهب والمناهج الغربية بحذافيرها وحاول تطبيق تلك المناهج على قراءته وفهمه للقرآن، ومنهم من حاول الإلمام بالمناهج الغربية والعربية بالاستيعاب والتجاوز لها في ذات الوقت نحو منهج قرآني توحيدي، مثل: المفكر والكاتب السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد (1942-2004).

ولأن السنة النبوية جزء لا يتجزأ من هذه القراءة الحداثية التي تَمَسُّ السنة بشكل كبير والقرآن بشكل أكبر، فقد ظهر تضارب في الآراء؛ فهناك من نفاها، وهناك من قيّد الأخذ بها، وهناك من توسع في الأخذ بها، ولهذا ارتأينا أن نجعل هذا المقال في: "القراءة الحداثية للسنة النبوية عند محمد "أبو" القاسم حاج حمد"، لكي نرى الطريقة التي ضبط بها حاج حمد قراءة السنة النبوية وفق محددات منهجية معرفية مستمدة من القرآن نفسه، وعليه؛ فالإشكالية التي يحاول هذا البحث الإجابة عليها هي: ما هي المداخل المنهجية والضوابط المعرفية التي وضعها حاج حمد لقراءة السنة النبوية؟

كما ويتفرع عن هذه الإشكالية الرئيسة التساؤلات الفرعية الآتية:

- ما علاقة السنة بالقرآن الكريم؟ وهل يمكن أن تكون ناسخة للقرآن الكريم؟ وما هي القيمة المنهجية للسنة النبوية التي يراها حاج حمد؟ ولهذا فقد سرنا وفق المنهج الوصفي بآلتي الوصف والاستقراء من أجل الوصول إلى الأهداف الآتية:
- الوقوف على أن السنة النبوية هي تبيين للقرآن الكريم، ولا يمكن أن تكون ناسخة له، لأن هذا يتعارض مع منهجية القرآن الكلية المبنية وفق بناء عضوي محكم، إذا احتل منه حرف واحد احتل البناء كله.
 - بيان أن لم تن السنة نفس أهمية سندها.
 - توضيح أن المفردات النبوية متوافقة مع المفردات القرآنية ولا تعارضها.
 - تسليط الضوء على أن للسنة النبوية الصامتة نفس أهمية السنة المنطوقة والفعلية .
- ومن هنا، ضبطنا خطة المقال في أربعة محاور؛ الأول مدخل مفاهيمي، والثاني في علاقة القرآن الكريم بالسنة النبوية، والثالث في ضوابط قراءة النص الحديثي، والرابع في القيمة المنهجية للسنة ولمسكوت السنة.

2. مدخل مفاهيمي

وسنحاول فيه بيان أهم المفاهيم التي سنقابلها في طيات هذا البحث وذلك من خلال نظرة حاج حمد لها، وعليه؛ فإننا سنتناول كل من التعريف بحاج حمد، ثم مفهوم القراءة الحداثية، ثم مفهوم السنة النبوية.

1.2 . التعريف بمحمد أبي القاسم حاج حمد:

ولد محمد أبو القاسم حاج حمد في (1942/11/28)، بجزيرة مقرات شمال السودان، نشأ في أسرة صوفية ذات علم؛ حيث كان منزلهم مقصداً للمتقنين والمفكرين. قصد الكتاب صغيراً ليحفظ القرآن، ووصل حتى المرحلة الثانوية لكنه لم يحز على أي شهادة، وفي الثانوي بدأ رحلة التثقيف الذاتي ليكوّن ويعلم نفسه بنفسه. تقلّد العديد من المناصب السياسية المهمة، كما عمل مستشاراً علمياً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي. أسس عام 1982 "مركز الإنماء الثقافي" في أبو ظبي، وأسس "دار الدينونة" في قبرص لإعداد موسوعة القرآن المنهجية والمعرفية، ولديه العديد من المؤلفات التاريخية والاجتماعية والفكرية والفلسفية والدينية، مثل العالمية الإسلامية الثانية، السودان المأزق التاريخي وآفاق المستقبل، حرية الإنسان في الإسلام، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن. توفي في السودان يوم (2004/12/20)¹.

2.2 . مفهوم القراءة الحداثية:

وهو مصطلح نقصد به مجموع ثلاثة مفاهيم مشكّلة لهذه القراءة وهي: منهجية الجمع بين القراءتين، والقراءة التحليلية، والقراءة المنهجية المعرفية.

- **منهجية الجمع بين القراءتين:** وهي مدخل كلي² قائم على تنزيه الخالق أولاً، ثم مطلقة الطبيعة والإنسان والكون³، وهي آلية أفرزها القرآن الكريم نفسه لانطلاقها من داخله⁴، والتي استخرجها حاج حمد من قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]، حيث تبرز قراءتان؛ "قراءة باسم الله ثم بمعينه ليتوصل إلى علم يمكن أن يُدوّن بالقلم، ولا بد أن تكون القراءة شاملة للكون المسطور في الكتاب، والكون المنثور في الوجود برمته. إذن، القراءة الأولى... تتضمن منطقياً واستيعابياً القراءة الثانية"⁵، فالقراءة الأولى هي قراءة باسم الله وبالوحي الإلهي بصفة الله خالقاً، وسماها حاج حمد بقراءة "الورثة المصطفين"، الذين قال عنهم المولى تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، والقراءة الثانية هي قراءة موضوعية علمية في الخلق الإلهي وحركته وغاياته بمعية الله وبالقلم وسماها بقراءة "أولي الأبواب" الذين أشار الله إليهم بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190-191]، فهذه القراءة الموضوعية

¹ ينظر، زينب عبد العزيز، ثنائية العرفان والعقلانية عند محمد "أبو" القاسم حاج حمد -دراسة تأسيسية-، مقال مقبول للنشر في مجلة دراسات العلوم الإسلامية، العدد الأول، المجلد 3، 2021. وينظر، زينب عبد العزيز، ثنائية الفكر والواقع عند المفكر محمد "أبو" القاسم حاج حمد، وقائع المؤتمر الدولي الأول: التنوع المعرفي ودوره في تمكين الرقي المجتمعي، 2021/02/01، دار الكتب والوثائق الوطنية ببغداد، العراق، ص: 352.

² ينظر، سامي سنوسي، الإستيمولوجيا الجديدة والمنهج التحليلي للقرآن عند أبي القاسم حاج حمد، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 5، العدد 41، 2018، ص: 86.

³ ينظر، محمد الشريف الطاهر، التكامل الإستيمولوجي في الممارسة المعرفية التوحيدية، أطروحة دكتوراه علوم في الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باتنة 1- الحاج لخضر، 2020/2019، ص: 177.

⁴ ينظر، زينب عبد العزيز، الآليات المنهجية للقراءة الحداثية للنص الديني -محمد "أبو القاسم" حاج حمد نموذجاً-، المؤتمر الدولي الأول: الأسئلة الكبرى ورهانات الواقع قراءات في المنظور الإسلامي، 2021/02/16-15، جامعة ذي قار، العراق.

⁵ ينظر، سامي سنوسي، الإستيمولوجيا الجديدة والمنهج التحليلي للقرآن عند أبي القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ص: 87.

الآخذة بكل ما أتاحه التطور العلمي للإنسان من مناهج الاستدلال العقلي والاستقراء العلمي هي مرتبطة ببعد غيبي متجاوز مستوعب باتجاه كوني مستمد من الوحي الإلهي القرآني¹.

وبعبارة أخرى؛ فالجمع بين القراءتين تمثل دجما بين "قراءة غيبية تتم عبر التأمل الذاتي في الكون وعلاقات ظواهره بحيث يكتشف الإنسان أهداف الخلق لا (تركيب) الخلق... ثم هنالك القراءة الثانية: وهي القراءة بالقلم، وهي قراءة علمية صارمة في (تركيب) الكون..."²، فالقراءة الأولى مجالها القرآن بوصفه كتابا كونيا، وموضوعها قدرة الله اللامحدودة على الخلق أو التخليق والتي هي خارج النتاج الإنساني، وهدفها البحث في غاية وهدف تخليق الكون والذي لا يمكن تحصيله إلا من القرآن. أما القراءة الثانية فمجالها الكون المنفتح، وأدواتها العلوم والمناهج المعرفية والعلمية الإنسانية، وهدفها التفهم العلمي الحضاري لتحليلات القدرة في نشاط الظواهر ووجودها وحركتها وتفاعلاتها³.

- **القراءة التحليلية:** وهي قراءة متسقة مع منهجية الجمع بين القراءتين، وتعتمد على التفكير والتحليل اللذين يساهمان في نقد الموجود، ثم يأتي التركيب للخروج بنتائج جديدة منسجمة مع الألوهية الأزلية والبعد الغيبي ومطلعية الإنسان والكون والطبيعة. فتركيز حاج حمد على التحليل ثم التركيب إنما هو في الحقيقة "نوع من الثورة على النماذج السائدة، التي فصلت بين المتصلات، ووصلت بين المنفصلات، فالرؤية التوحيدية عنده، إنما تُوحّد بين الغيب كبعد مركزي عند أهل الأديان مثلا، والطبيعة كبعد مركزي عند العلمانيين كذلك، والإنسان كمرتبة وسطية بينهما، وهكذا تكتمل الجدليات الثلاث"⁴ دون مقارنة أو مقارنة بين الطرف اللاهوتي المتمثل في التفسير أو الوضعي المتمثل في التأويل المصلحي لأن منطلق حاج حمد إنما كان من القرآن إلى القرآن، حيث يقول: "ثم جاءت القطيعة مع طرفين: الطرف اللاهوتي ذي التركيبة الدينية، والطرف الحدائثي التنويري ضمن الإسلام. الطرف الحدائثي لأنهم أرادوا أن ينتقوا من القرآن ما يتوافق مع مفاهيمهم... لأنهم لم يقرؤوا القرآن قراءة دقيقة من الداخل. الحدائثيون انتقوا فأبطلوا النسق الكلي للرؤية الكونية القرآنية... واللاهوتيون تشددوا فيما لا يعرفون... استمدوا فهمهم للقرآن من واقع تراثي تاريخي محدد بنتاج ثقافي ومركب اجتماعي وأخلاقي معين، فاستلبوا القرآن. الحدائثيون أخذوا النصوص التي تبدو لهم أكثر إنسانية وتنويرية، ليلغوا بها النصوص الأخرى... أي أريد أن أخرج نهايا عن مسارب التأويل، لذلك تحدثت... عن منهجية القرآن المعرفية، عن استمداد آليات لفهم القرآن من داخل القرآن تكون منضبطة"⁵.

ولكي نقرّب الصورة أكثر فإن الفارق بين التفسير والتحليل يكمن في أن الأول إنما هو تفصيل للمعاني وشرحها، أما التحليل فيتفوق على التفسير لكونه يرد هذه المعاني إلى أصولها، وهدفه هو الوصول إلى القصد من وراء الآية والسورة وفهم النتائج بدقة، فالتحليل يخترق الشكل إلى الماهية، ويحاول معرفة العلاقات بين الظواهر البسيطة فالمعقدة، ثم الأكثر تعقيدا لكي يصل إلى الكل، كما أنه يعيد البحث لاكتشاف معاني الأشياء دون الركون إلى المسلمات العامة⁶.

¹ ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، إسلامية المعرفة المفاهيم والقضايا الكونية، مجلة تفكّر، مجلد 3، العدد 2، السودان، 2001، ص: 1. وينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، الإسلام ومنعطف التجديد (رؤية منهجية ومعرفية)، مؤتمر الشريعة والاجتهاد، الخرطوم، 2004، ص: 23. وينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، الانقلاب على الموروث الديني ومنهجية القرآن المعرفية، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، المجلد 15، العدد 47-48، 2011، ص: 75.

² محمد أبو القاسم حاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1425-2004، ص: 314.

³ ينظر، محمد الشريف الطاهر، التكامل الإستمولوجي في الممارسة المعرفية التوحيدية، المرجع السابق، ص: 178.

⁴ سامي سنوسي، الإستمولوجيا الجديدة والمنهج التحليلي للقرآن عند أبي القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ص: 88.

⁵ محمد أبو القاسم حاج حمد، الانقلاب على الموروث الديني ومنهجية القرآن المعرفية، المصدر السابق، ص: 69-70، 72.

⁶ ينظر، الحاج أومنه دواق، الإستمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدي قراءة في مشروع محمد "أبو القاسم" حاج حمد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1، 1436-2015، ص: 295-296.

- القراءة المنهجية المعرفية: المنهجية أو الضابط المنهجي عند حاج حمد تعني طرح الأفكار ضمن قالب واحد يبين دون الخروج عنه، حيث يقول: "إن الضابط المنهجي يعني القانون الفلسفي أو المبادئ الفلسفية الناظمة بتحديد واضح للأفكار، فالمنهجية تقنين للفكر، ودون هذا التقنين يتحول الفكر إلى تأملات وخطرات انتقائية"¹، ولهذا فالمنهجية ترفض التناقض والتضارب في الآراء وترفض أيضا الخروج عن هذا القالب المحدد، فالمنهجية تشبه النظام الرياضي العلمي الصارم، كما يمكنها في نفس الوقت أن تعالج القضايا التي تبدو متناقضة ولكن ضمن هذا النظام دون الخروج عن قوانينه ومبادئه². وعليه تصبح المنهجية وفق حاج حمد هي "خروج العقل من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم إلى اكتشاف النسق المرجعي الذي يحاكم هذه المفاهيم نفسها ويؤطر لإنتاجها بحيث يحكم التطبيقات في مختلف الحقول الأخرى، فالمنهج هو خلاصة قوانين تحولت إلى نظريات تحولت بدورها إلى إطار مرجعي وليس مجرد صياغة موضوعية للتفكير"³.

وأفضل مثال للمنهجية المتكاملة هو القرآن الكريم، والذي لا تتضارب ضمنه المواضيع ولا الأحكام، إنما هو مرجع ومصدر كامل يُرجع إليه ويُفهم من خلاله الكثير من القضايا والإشكالات، و"هو أكبر من كافة المناهج المعرفية النقدية التحليلية، لا بمعنى أنه يرفضها، ولكن بمعنى أنه (مهيم) عليها بمنهاج كوني يستوعبها جدليا ويسقط عنها أي عن هذه المناهج_ التباساتها الفلسفية الجزئية"⁴، وهو الكتاب الذي ابتداءً مفرداً ومجزئاً كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]، ثم التأم وتركّب وأصبح كلا واحداً بالترتيب الوقفي الذي استقر عليه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [القيامة: 17-19]، فغدا كتاباً منهجياً معرفياً معادلاً للوجود الكوني، حيث يقول حاج حمد: "بحكم إعادة الترتيب حيث اتخذ الكتاب وحدته العضوية يفتح الطريق أمام القراءة المنهجية المعرفية، وهذه إحدى أهم معجزات القرآن إذ النص واحد لا يتغير ولا يتبدل وتختلف قراءته تبعاً للتركيب والفارق النوعي في تطور العقل البشري، فلكل حالة عقلية تاريخية إسقاطاتها الذهنية الخاصة بها على القرآن تبعاً لمبادئها العقلية وأشكال تصورها للوجود"⁵.

ومن هنا؛ فإن القراءة الحداثية التي نقصدها هي مجمل منهجية الجمع بين القراءتين الغيبية والموضوعية، مع القراءة التحليلية المستوعبة والمتجاوزة للتفكيك نحو التركيب، وهي قراءة منهجية معرفية محكمة ذات نسق واحد مترابط وهذا ما يتطلب تفعيلها كاملاً مستمراً لمقومات الوعي الإنساني من سمع وبصر وفؤاد⁶.

3.2. تعريف السنة النبوية:

السنة عند حاج حمد هي التطبيق الرسولي المتمثل مع النص القرآني⁷، ولا يعتبر حاج حمد السنة من التراث، لأنها تستمد مرجعيتها من القرآن سواء أكانت سنة قولية، أو سنة فعلية، أو سنة صامتة، كما أنها تتميز بالنسبية مقارنة بعصرنا بحكم تعلقها بالزمان والمكان، ومقارنة

¹ محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1424-2003، ص: 36-35.

² ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر نفسه، ص: 37.

³ محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر نفسه، ص: 37.

⁴ محمد أبو القاسم حاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، المصدر السابق، ص: 315.

⁵ محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر السابق، ص: 98.

⁶ ينظر، زينب عبد العزيز، التكافؤ بين المسلم والآخر في الإسلام_دراسة تحليلية عند محمد "أبو" القاسم حاج حمد، مجلة حقول معرفية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 2، العدد 1، 2021، ص: 184.

⁷ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر السابق، ص: 270.

بالمطلق القرآني المتعالي عن الزمان والمكان بفضل إعادة ترتيبه، ولكنها تعدّ في نفس الوقت خارج التكوين التاريخي للزمان والمكان لأنها موازية للقرآن، حيث يقول حاج حمد: "السنة النبوية هي خارج التراث، لأنها تستمد سلطتها المرجعية من النص الإلهي القرآني المطلق في أشكالها الثلاثة، وهي: السنة القولية، والسنة الفعلية، والسنة الصامتة، فما سكنت عنه السنة وما لم تفعله هو سنة في حد ذاته قياساً لما افترض القول أو الفعل. فالسنة النبوية تتميز بالنسبية إزاء المطلق القرآني بحكم تعلقها بالزمان والمكان، ولكنها خارج التكوينية التاريخية للزمان والمكان بذات الوقت، لأنها ليست محض استجابة شرطية له، إذ تصدر السنة في قولها وفعلها وما سكنت عنه وفي سلطتها المرجعية عن النص القرآني المطلق، فالسنة تتحرك في زمانها ومكانها ولكن بمنطق الاستجابة والتعالي، أو الاستيعاب والتجاوز، فهي موازية_ولكن ضمن نسبيتها_ للقرآن، وليست ناسخة له ولا هو بناسخ لها"¹.

وبذلك فإن السنة هي التطبيق المتماثل مع النص القرآني؛ فهي لا تخرج عن القرآن بل تسير معه، وبما أن القراءة الحدائية هي قراءة منهجية معرفية كلية جامعة في القرآن بأدواته المعرفية، فالسنة متضمنة بذلك في هذه القراءة التي تسهم في فهم القرآن، قراءة منتظمة غير متناقضة.

3. علاقة القرآن بالسنة النبوية

سنتناول في هذا المحور علاقة القرآن بالسنة بمزيد من التفصيل، وعليه فسنتأني على ذكر إطلاقية القرآن التي منحته صفة المرجعية الأولى، ثم سنثبت أن دور السنة هو البيان للقرآن، وسنعرّج من خلالها على إشكالية نسخ السنة للقرآن.

1.3. إطلاقية القرآن وعلاقتها بالسنة

يرى حاج حمد أن أهمية السنة في علاقتها وتأثيرها على القرآن تشبه تأثير أسباب النزول، والتي تقيد القرآن وفهمه بتاريخية ومكانية معينة إن أخذ بما جملة وتفصيلاً²، ولهذا فإن الترتيب الوقفي للقرآن الكريم بمعزل عن أسباب النزول قد أعطى للقرآن صفة الإطلاقية، وجعلت بذلك السنة النبوية مقيّدة إلى التنزيل، "فالممارسات الرسولية في قيادة حياة الدعوة تتم وفق مفهوم ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر: 31]، ثم يقيد الله تلك الممارسات تقييداً قاطعاً بحكم القرآن فتصبح آيات القرآن حكماً على ممارسات الرسول الموقر، فلا ينسب إليها ما لا تصدقه آيات القرآن"³، وعلى هذا فالسنة التي تعتبر مقيّدة نسبياً تتبع القرآن المطلق الذي قال عنه المولى تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

كما تعدّ السنة مدخلاً لدسّ شوائب منحولة في الإسلام وفي فهمه وتطبيقاته من خلال المتن الذي حظي باهتمام أقل بالمقارنة مع دراسة السند⁴، مثل محاولة العودة إلى شرعة الإصر والأغلل التي جاء التبشير الإلهي بنسخها بشرعة التخفيف والرحمة⁵ عند قدوم النبي المنتظر: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّحْمَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَايُ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا

¹ محمد أبو القاسم حاج حمد، أبستمولوجية المعرفة الكونية الإسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1425-2004، ص: 252-253.

² ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والانسان والطبيعة، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1416-1996، ج:

1، ص: 50.

³ محمد أبو القاسم حاج حمد، حرية الإنسان في الإسلام، دار الساقى، بيروت، ط1، 2012، ص: 90.

⁴ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، المصدر السابق، ص: 189.

⁵ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، أبستمولوجية المعرفة الكونية الإسلامية المعرفة والمنهج، المصدر السابق، ص: 187.

يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ [الأعراف: 155-158]، وهذا خلاف القرآن الذي تكفل الله بحفظه من التزييف والتحريف لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

بالإضافة إلى أن السنة تمثل وضعية دينية مخصوصة بفترة زمنية محددة تبرز الخصائص الفكرية لوعي مفهومي تاريخي ديني مضى، والتي صاغت مع فهوم الصحابة والسلف معظم تراثنا في عصر التدوين، وهي "مرحلة ذات خصائص مفهومية معينة في تصوورها، انعكست بالضرورة على فهمها للقرآن وتعاملها معه، هذا لا يعني بالضرورة نقداً لذلك الوعي في عصره إذ إنه خاصة ملازمة لمراحل التطور البشري، ولم يكن لا العربي ولا غير العربي بقادر على أن يخرج عن تلك الخصائص التي تكوّنه، وقد أخذوا من القرآن - كما قيض الله لهم - ضمن خصائصهم ووعيهم، أي فهموه كما ينبغي لهم أن يفهموه. أما نحن فنعبر إلى القرآن من موقع تاريخي مختلف¹، والإشكال الذي يواجهه الدارسين والمفسرين للنص الديني هو أزمة التوقف عند هذه الوضعية الدينية دون القدرة على "طرح المأثور والمنقول نفسه ضمن منهجية القرآن نفسه، أي إن الغائب الأكبر في الفكر الديني يرجع إلى عجز الفكر الديني عن الوصول إلى المنهج الكوني الذي يعطيه الوعي القرآني، ليضع ضمنه قياساً وتدقيقاً واختباراً كافة المنظورات الكونية. من هنا يأتي التخبط والعجز، ومن هنا تأتي التوفيقية التبريرية والتوفيقية التعسفية، ومن هنا يتحول الدين إلى وعظيات خطابية، وإلى قضبان سلفية، تزهد روح الإبداع الحق وتحنط علاقة الإنسان بالحياة وتقوده إلى خارج العصر"².

فإحدى خصائص القرآن هي في كونه كتاباً يحمل نصوصاً ثابتة قابلة لمختلف أشكال الوعي وفقاً لما تعطيه المرحلة التاريخية من أدوات ومعارف ومنهج جديدة مساعدة على الفهم، ويظل القرآن - وهو الكتاب الحامل لأبعاد الفكر الكوني - أكبر من كل المناهج والمعارف والتفاسير والقراءات، ولعل الشيء المثير للاهتمام الذي جاء به حاج حمد هو الطريقة الجديدة في التعامل مع القرآن والتي توصلنا إلى محتوياته من خلال المنهج والمعنى القرآني المعرفي المكتشف من خلال التمعن في الاستخدام الإلهي للمفردات دون الاستعمال العربي المحكوم بالثقافة العربية³، وكذا المعنى التوحيدي الضام للجمع بين القراءتين، وهذا ضمن خصائص العالمية الجديدة أو المرحلة التاريخية الجديدة، وهذا الذي يضعنا أمام طريق المقارنة بين ما أعطاه القرآن من مفاهيم في الماضي وفي الحاضر كدليل على صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، وتدخل السنة النبوية ضمن هذا الفهم باعتبارها الوسيط الحي الفعال بين حقائق الوعي القرآني في مطلقها وتصورات الوعي البشري في نسبيتها التاريخية، حيث وضع الرسول الكريم - باعتباره الأسوة الحسنة - العرب على بداية مسار التحول إلى هذه المنهجية الكلية من خلال التفاصيل الشاملة التي أعطاهها لهم، فمهمته كانت محاولة ترشيد المجتمع ضمن تطبيقات المنهج، فاجتمع له بذلك تجربة العبد الصالح مع موسى، ودور موسى مع قومه، فقد حاول العرب النظر إلى القرآن من خلال مفرداته وفهمها ضمن تجربتهم الحياتية والفكرية، ووجدوا في القدوة الرسولية التعويض الملائم المعني عن فهمهم للمنهجية في كليتها⁴، وأما في عصرنا هذا "فإن القرآن يطرح نفسه أمام تجربة الحضارة العالمية، ليس ببناء اللفظ ولكن بمحتوى المعنى، وهذه هي مكوناته للبشرية عبر مراحل تطورها... ومكوناته تأتي في إطار منهجي كامل.

¹ محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، دار الساقى، بيروت، ط1، 2011، ص: 125.

² محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، المصدر نفسه، ص: 125-126.

³ ينظر، زينب عبد العزيز، خصائص اللغة العربية القرآنية عند محمد "أبو القاسم" حاج حمد، مقال مقبول للنشر في مجلة باحثون، العدد 13، 2021.

⁴ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، المصدر السابق، ص: 127-129.

فقد استند تركيب العالمية الأمية على "المبنى اللفظي للقرآن والقُدوة الرسولية الحسنة والتطبيق التحويلي في إطار الخصائص المحلية"، أما الآن فإن وضعا قد طرأ إذ تستند القراءة الآن على "المعنى القرآني والمنهج والخصائص العالمية"¹.

ومن هنا؛ فحاج حمد لا ينفي السنة بل يدعو إلى قراءتها لفهم وعي تلك المرحلة، ومعرفة الدور الذي لعبه الرسول الكريم كوسيط في إيصال التبليغ إلى المتلقين في محاولة منه لوضع العرب على طريق المنهجية من خلال تزويدهم بالتفاصيل الشاملة لأبعاد حياتهم المختلفة، وفي نفس الوقت يحاول حمد إعادة قراءتها وفق معطيات المرحلة التاريخية التي نعيشها وما تطرحه هذه المرحلة من مناهج ومعارف، وخصوصا منهج الوحدة الكلية المنهجية في فهم الظواهر، فالقرآن بعد الترتيب الأخير الذي استقر عليه صار كلا واحدا مفرزا منهجا عضويا موحدًا من داخله لفهم آياته وجزئياته، ما يجعله بذلك حَكَمًا على السنة ومرجعًا لها، كما يبين حاج حمد خطورة الوقوف على السنة بمخاطرها دون فهم لطبيعة تلك المرحلة ووعيمها، ونوّه إلى ضرورة البحث عن الإشارات المبشّرة بالمنهجية الكلية، لأن السنة مثل أسباب النزول إن أخذ بها جملة وتفصيلا قيّدت القرآن وجعلته صالحًا لظرفية ذلك الزمان والمكان، وهو ما يخالف مكنونية وإطلاقية القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان.

2.3. السنة بيان للقرآن

يقول المولى عز وجل: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64]، فمن هذه الآية يتضح جليا أن العلاقة بين القرآن وممارسات الرسول هي التبيين؛ فالسنة ليست شارحة للقرآن نهائيا بل يبقى القرآن هو المرجع لها والحاكم عليها، ولا اعتداد لمن يقول بأن السنة قاضية على الكتاب؛ فكيف يكون هذا والقرآن مهمين على من سبقه من الكتب ولا مهمين عليه، وكيف تكون السنة التي هي بيان قاضية على الأصل الأكبر الذي يُتَّكَم ويُرجع إليه²؟ فالسنة محفوظة بالقرآن وليست مستقلة بحفظ خارج الحفظ القرآني، بينما القرآن محفوظ حفظا تاما³، ولهذا يجب أن تُقارن الأحاديث بالقرآن الذي ثبت على الترتيب الأخير إلى يومنا هذا. ولهذا فحين يأتي من يقول بأن هناك آية مثل آية الرجم أسقطت من القرآن أو نُسخت، فهذا الكلام مناقض للوعد الإلهي المتعهد بحفظ القرآن والتكفل بجمعه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 16-19]، وكذا ضرب في البعد المنهجي الكلي الذي أصبح عليه القرآن بعد الترتيب الوقفي⁴، وادعاء بأن النص المطلق يُنسخ بالمقيّد المشخّص بالزمان والمكان⁵، وقول مثل هذا يحمل افتراقا بين القرآن والسنة، وكأن في السنة ما لا يوجد في القرآن، بينما القرآن نفسه يشير إلى عودة كافة أحكام الرسول إلى القرآن نفسه⁶، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ

¹ محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، المصدر نفسه، ص: 129.

² ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر السابق، ص: 15. وينظر، طه جابر العلواني، السنة النبوية ونقد المتون، إسلامية المعرفة، بيروت، المجلد 10، العدد 39، 2005، ص: 8. وينظر، سعيد عبد الجبار، الإطار المرجعي لعلم نقد متن الحديث النبوي الشريف، إسلامية المعرفة، بيروت، المجلد 10، العدد 39، 2005، ص: 54-55.

³ ينظر، محمد الأمين بابيز، التأسيس المعرفي للحقيقة الدينية في الخطاب الإسلامي المعاصر أبو القاسم حاج حمد نموذجًا، رسالة دكتوراه، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2018/2017، ص: 193.

⁴ ينظر، زينب عبد العزيز، خصائص اللغة العربية القرآنية عند محمد "أبو القاسم" حاج حمد، المرجع السابق.

⁵ ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر السابق، ص: 15.

⁶ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، حرية الإنسان في الإسلام، المصدر السابق، ص: 90-91.

تَكُنْ لِلْحَائِيَيْنِ خَصِيمًا ﴿ [النساء: 105]. وبالتالي فقول وفعل الرسول الكريم يمثلان المرجعية التطبيقية لمنهجية القرآن، والسنة والقرآن لهما نفس المنهج، فكل حديث يُروى مخالفا لما جاء في صحيح القرآن فهو إما يُبطل مصداقية النبوة نفسها¹.

كما نوه حاج حمد بأن الرسول الكريم بوصفه قائما على تأسيس مجتمع الدعوة كان لزاما عليه أن يمنح تلك المرحلة وحيها الخاص بها، وذلك مثلما نصت عليه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 43-44]، وهذا التبيين لا يقتصر على أمة العرب بل يشمل الناس جميعا²، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16]، وأيضا: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 24]، فمهمة السنة بذلك هي تبيين القرآن للمجتمع الذي نزل إليه وفيه حصرا بالإضافة إلى بيان القرآن للمجتمعات الأخرى وإشارات بيانية للأمم التي ستأتي.

ومن هنا؛ فالسنة هي بيان للقرآن، وتبيين للأمة العربية التي نزل عليها الكتاب، وللأمة الوارثة للكتب السابقة أيضا، ولا افتراق بين منهج القرآن ومنهج السنة، بل القرآن هو الحكم على السنة والمرجع لها، وللتأكد من صحيح السنة يجب العودة إلى القرآن والتبيين منه.

3.3. نسخ السنة للقرآن

وإلى هنا نصل إلى قضية أخرى مهمة في علاقة القرآن بالسنة وهي إشكالية نسخ السنة للقرآن، والدلالة المفهومية للنسخ عند حاج حمد ليس المقصود منها إبطال بعض الآيات أو إسقاطها، بل تعني عنده قرآنيا استبدال حالة تاريخية أو عقلية بحالة أخرى مغايرة³، فهذا الاستبدال وقع في القرآن من خلال نسخ القرآن لشرائع الإصر والأغلال التي كانت قبل البعثة المحمدية بشرعة التخفيف والرحمة، ونسخ الخطاب الحضري الذي تميز به الأقوام قبل قوم النبي الخاتم إلى الخطاب العالمي الموجه للناس كافة ابتداء بقوم الرسول أنفسهم. أما مفهوم النسخ باعتباره المسقط والمبطل للآيات _ سواء أكان إسقاطا للآيات فيما بينها أم إبطال السنة لبعض الآيات _ فقد رفضه حاج حمد رفضا قاطعا لأنه يدل عنده على أن في القرآن تناقضا وتعارضا وتضاربا بين الآيات وتضاربا بين السنة والقرآن، وإذا احتل جزء من القرآن فقد سقط البناء الكلي، ولم يعد كتابا مطلقا معصوما صالحا لكل زمان ومكان⁴، "فإن الله تبارك وتعالى هو منزل الكتاب، والموحى بالسنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوحيد الله يقتضي الإيمان بوحداية الوحي ومصدريته... فلا بد أن يكون وحي الله تبارك وتعالى منسجما فيما بين عناصره، فلا يتعارض أي من أجزائه مع الأجزاء الأخرى، فلا تتعارض آية مع آية، ولا يتعارض حديث مع حديث، وكذلك لا يتعارض حديث مع آية. كما أن هذا الانسجام بين مفردات الوحي، كان يشكل الحجة الأقوى، والبرهان الأسطع على أن هذا الوحي من الله وليس من البشر. لأن طبع ما يصدر عن البشر الاختلاف والتباين. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]⁵.

¹ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر السابق، ج 1، ص: 60-61.

² ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، الحاكمة، تح: محمد العاني، دار الساقى، بيروت، ط 1، 2011، ص: 100-101.

³ ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر السابق، ص: 101.

⁴ ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر نفسه، ص: 15.

⁵ سعيد عبد الجبار، الإطار المرجعي لعلم نقد متن الحديث النبوي الشريف، المرجع السابق، ص: 58.

كما سبق وأن بيّنا بحسب ما أورده حاج حمد بأنه لا افتراق بين منهج القرآن والسنة فلا يعقل أن تأتي السنة بجديد لم يأت به القرآن، ولا يمكن بذلك أن تنسخ أي معنى الإسقاط والإبطال. السنة القرآن فذاك يؤدي إلى سقوط الحق الذي به أنزل القرآن: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: 105]، فالقرآن والسنة كلاهما "معصومان ضمن منهجية واحدة"¹، وأي قول ينسب إلى السنة نسخ القرآن يجب رده إلى القرآن نفسه لأنه هو المصدّق والمهين²، ولهذا يجب التوجه إلى ضبط نص السنة بمقارنته وعرضه على نص القرآن، لأن "القضية قضية منهج ومنظومة متكاملة، وليس قضية خيارات انتقائية نرفض بعضها ونقبل ببعضها تبعاً لتداعيات المزاج، فالتعامل هنا هو مع أخطر كتاب يستمد حرمة من حرمة الذات الإلهية"³.

فالنسخ إنما يمثل خرماً وتناقضاً بين القرآن الذي يشدّد على مسألة أنه كتاب معصوم متعهد بالحفظ الإلهي، وأنه لا وجود لزيادة أو نقصان إثر ترتيبه الوقفي، وبين السنة المعصومة الموافقة للكتاب باعتبارها البيان لهذا الذكر.

وعليه؛ فإن علاقة القرآن بالسنة وعلاقة السنة بالقرآن علاقة متلازمة ولا افتراق بينهما، وعند الاختلاف يُرجع إلى القرآن باعتباره المرجع والمصدّق والمهيم على السنة؛ فالوحدة الكلية التوحيدية التي ميّزت هذا الكتاب جعلت من السنة تابعة ومبيّنة له غير خارجة عليه، وبهذا فلا وجود لشيء منهجي يُدعى بنسخ السنة للقرآن.

4. الضوابط المنهجية لقراءة النص الحديثي

تبيّن من المحور السابق أن حاج حمد يدعو إلى ضرورة قراءة وضبط النص الحديثي، ولهذا فإننا سنتناول في هذا المحور ضوابط قراءة النص الحديثي، عبر التطرّق أولاً لعصمة النبي، ثم لغة النبي، وسنعرض في الأخير نموذجاً من هذا الضبط من خلال دراسة مفردة من مفردات السنة حملت تعارضاً مع مفردات القرآن.

1.4. عصمة النبي

القرآن والسنة معصومان في نظر حاج حمد، حيث أن القرآن محكوم ببنائية متناهية الدقة بدءاً بأصغر بناء فيه وهو الحرف، حيث الحرف الواحد له قيمته وأهميته المنهجية التي تشبه الجزء الصغير البسيط في الكون، والذي إن تحرك أو احتل مكانه فيحتل البناء الكلي تبعاً له، ولهذا يشابه المولى عزّ وجل بين القرآن والكون⁴ فيقول تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: 75-78]، فلا سقط ولا نسخ، وكذلك الرسول الكريم معصوم في قوله وفعله، لأنه فوق مرتبة الخلق جميعاً وهو المصطفى والمختار لحمل أعظم رسالة عرفتها الإنسانية، وهو مصدر الرحمة والتزكية⁵، حيث كان النبي الأكرم صفحة بيضاء؛ فلم يكن قارئاً للحروف ولا متعبداً لأي من الديانات الكتابية السابقة، أي لم يكن كاتباً ولا كتابياً ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُلُونَ﴾ [العنكبوت: 48]، فلا شوائب روحية موروثية سابقة ولا ثقافات عصر تتشابك مع فلسفاته، فاستخلصه الله له كاملاً وبلغ به درجة العصمة المطلقة، حيث قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا

¹ محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر السابق، ج: 1، ص: 66.

² ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر نفسه، ج: 1، ص: 66.

³ محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر نفسه، ج: 1، ص: 63.

⁴ ينظر، زينب عبد العزيز، المفردة القرآنية عند محمد "أبو" القاسم حاج حمد، كتاب مقالات المؤتمر الدولي الافتراضي للقرآن الكريم واللغة العربية الدراسات اللغوية والأدبية، 2021/03/27، جامعة كردستان، إيران، ج: 2، ص: 315-316.

⁵ محمد الأمين بابيز، التأسيس المعرفي للحقيقة الدينية في الخطاب الإسلامي المعاصر أبو القاسم حاج حمد نموذجاً، المرجع السابق، ص: 193.

وَحْيٌ يُوحَى ﴿ [النجم: 1-4]، وهو قسم إلهي بحق العصمة المحمدية لا يوازيه إلا القسم الإلهي بحق العصمة القرآنية، في مماثلة بين العصمتين القرآنية والمحمدية بمواقع النجوم¹، وبهذا فالقرآن وسنة الرسول أصلان متطابقان من مصدر واحد².

2.4. لغة النبي

بما أنه لا انفك بين القرآن والسنة، فإن لغتهما ومفرداتهما واحدة أيضا؛ فالقرآن في بنائه اللغوي محكوم ببنائية في غاية الانضباط، بحيث ترتقي مفرداته إلى درجة الاصطلاح المنضبط الدقيق، وكل مفردة تعطي معنى واحدا في كل الكتاب حيثما استخدمت وكيفما تبدل السياق، وللوقوف على هذا المعنى لا بد من الرجوع إلى ضوابط الاستخدام الإلهي لهذه المفردة، لا عبر الشائع عند العرب، ومن هنا فإن الاستخدام الإلهي للغة يختلف عن الاستخدام البشري لها³، "فليس من أحد يستطيع ضبط الصياغة القرآنية على مستوى الحرف المماثل لصياغة الكون غير الله فلكل حرف وظيفته (الألسنية النبوية) في الإنشاء القرآني الذي ليس هو مجرد بلاغية فقط... فحين يستخدم الله اللغة العربية في التنزيل فإنه يستخدمها وفق مستوى إلهي يقوم على الأحكام المطلق فلا يكون في القرآن مترادفات توظيفها ضمن جناس وطباق، إذ تتحول الكلمة ضمن الاستخدام الإلهي إلى (مصطلح دلالي) متناهي الدقة... فلكل كلمة في القرآن دلالتها المفهومية المميزة، وذلك خلافا للاستخدام البشري البلاغي العفوي لمفردات اللغة"⁴، ومن هنا فقد شدّد حاج حمد كثيرا على المفردات القرآنية لأنها هي المدخل لفهم القرآن الكريم، وقد تجاوز استخدام العائد المعرفي أو التصور الذهني العربي لهذه المفردات واعتبرها المدخل الرئيس للقراءة الحداثية التي يصبو إليها، لأن اللغة القرآنية في أصلها أرقى من اللغة العربية نتيجة الاستخدام الإلهي لها المغاير للاستخدام العربي، بالإضافة إلى أن التصور المعرفي القرآني يعود إلى الله وحده، بينما التصور الذهني العربي يعود إلى البيئة والثقافة التي عاشت فيها هذه اللغة، فأني تفسير يعود إلى مفاهيم العرب أنفسهم يكون قد حصر القرآن وقيده إلى ذلك الواقع وإلى تلك البيئة. كما أن حاج حمد لا ينظر إلى المفردات باعتبارها مفاهيم متغيرة متبدلة حسب السياق، بل هي مصطلحات علمية دقيقة تحمل معنى ثابتا واحدا لا يتغير ولا يتبدل حسب السياق، بل السياق ينسجم مع هذه المعاني الثابتة⁵، فالقضية عنده قضية منهجية بامتياز.

ولهذا فحينما نأتي إلى لغة النبي الأكرم فإن حاج حمد يقول بالانسجام والتوافق التام بين اللغة القرآنية ولغة الرسول، فلا تضارب ولا تناقض بين المفردات والمعاني، لأن الرسول الخاتم لم يكن كاتباً ولا كتابياً، وبهذا فقد اصطبغت مفرداته بصبغة الوحي وحدها، فكما أن الخطاب القرآني خطاب ذو مستوى رفيع وعال، فقول النبي الذي لا ينطق عن الهوى إنما هو أيضا قول فصيح بليغ⁶ يتجاوز قول العرب إلى الاستخدام القرآني، وهو محيط بما معاً، حيث يقول الشافعي: "ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبي"⁷. وعطفنا على ما سبق؛ فإن "لغة الرسول صلى الله عليه وسلم تتوافق بالضرورة المنهجية مع لغة القرآن، لتوثيق وحدة المقاصد والمعاني، ولهذا جعلت من لغة القرآن المميزة مرجعا لتوثيق (متن) الأحاديث أيا كان سندها"⁸.

¹ ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والانسان والطبيعة، المصدر السابق، ج: 2، ص: 94.

² ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والانسان والطبيعة، المصدر نفسه، ج: 1، ص: 66.

³ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والانسان والطبيعة، المصدر السابق، ج: 1، ص: 53-55.

⁴ محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، المصدر السابق، ص: 98-99.

⁵ ينظر، زينب عبد العزيز، خصائص اللغة العربية القرآنية عند محمد "أبو القاسم" حاج حمد، المرجع السابق.

⁶ ينظر، سعيد عبد الجبار، الإطار المرجعي لعلم نقد متن الحديث النبوي الشريف، المرجع السابق، ص: 61.

⁷ محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط2، 1358-1940، ج: 1، ص: 42.

⁸ محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والانسان والطبيعة، المصدر السابق، ج: 1، ص: 57.

ومن هنا؛ فإن لغة القرآن ولغة النبي منسجمان ومتوافقان، والمفردات المستخدمة من طرفهما إنما هي واحدة، وتبقى لغة القرآن حاکمة وموثقة لمتن الأحاديث.

3.4. نموذج لتعارض لغة القرآن مع لغة الحديث

أورد حاج حمد نموذجاً لتعارض لاحظته بين نص حديث نبوي ولغة القرآن، وهذا الحديث هو: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)¹، فمفردة الرعية هنا تعارض قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104]، وكذا قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسَبْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46]، فدلالة "راعنا" التي نهي الله عنها مرتين واستبدالها ب(انظرننا) خطيرة جداً، فراعنا تحطّ من قدر الناس بتحويلهم إلى (رعية) من مرعى حيث يقودها الراعي بعصاه. أما (انظرننا) فمن النظر والعناية والتكافؤ. ولم يستخدم الله في كل القرآن مفردة مراعاة أو رعاية وإنما استخدم مفردة (عناية) رجوعاً إلى العين والنظر²، وجاء ذلك مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: 37]، وأيضاً في قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39]، وكذلك في قوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 48]. فدلالة مفردة النظر والعناية وعكسها مفردة الرعية، ترتبط بقضية العلاقة بين الله والبشر وبين الأنبياء والبشر، فلا يُعقل لهذه العلاقة أن تنحطّ إلى دونية البهائم، كما أن هذه مسألة تفرز قضية أخرى وهي مجتمعات الرعي والبداءة، والتي نقدها القرآن، نظراً لما تحتويه سلوكياتها من قسوة ونفاق، سواء في مجتمع الدعوة، كقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَابِّرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذِّخْلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدَبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 97-101]، حيث لم يرد الاستثناء في حقهم إلا قليلاً، أم في المجتمعات السابقة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]، فكيف نستطيع بعد هذا التوفيق بين نقد الله لمجتمع البداءة ونهي الله عن استخدام مفردة الرعية، ثم نجز بعد ذلك استخدامها في مفردات الحديث؟ أليس هذا تناقضاً صريحاً وافتراقاً واضحاً بين منهجية القرآن ومنهجية الحديث³، ومن هنا فإن الإقرار بهذا الحديث "يعني نسفاً لمفهوم التكافؤ والنظرة المتماثلة للبشر وتأكيداً للعلاقات الاستعلاء والدونية بما يخالف قطعاً الإطار الذي قرره الله للعلاقات بين الناس... فالأصح أن يخاطب بعضنا بعضاً بمنطق "العناية"، لا الرعاية فلا نقول "في رعاية الله" بل "في عناية الله"⁴.

¹ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422-2001، كتاب: النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، رقم الحديث: 5200، ج: 7، ص: 32.

² محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر السابق، ج: 1، ص: 57.

³ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر نفسه، ج: 1، ص: 57-58.

⁴ محمد أبو القاسم حاج حمد، الحاكمية، المصدر السابق، ص: 51.

ومن هنا، فإنه يجب مراعاة متن الحديث والتأكد من صحته عبر مقارنته بالنص القرآني لكي نستبين صحيح السنة من مدسوسها. وعليه؛ فإن من ضوابط القراءة الحدائثية التي يدعو إليها حاج حمد في قراءة النص الحديثي، هو الانتباه لمتن الحديث من خلال التنبيه للغة النبي ومقارنتها مع النص القرآني؛ لأن القرآن هو المرجع للسنة، فلا يعقل أن يكون القرآن والنبي معصومين، ثم يفترقان، كما أن لغة القرآن منضبطة بالاستخدام الإلهي الدقيق الذي يرفع المفردة إلى درجة الاصطلاح الرياضي الدقيق، ولهذا فإن اختلف النص الحديثي مع النص القرآني، يُطرح الحديث ويعتدّ بالنص القرآني.

5. القيمة المنهجية للسنة ولمسكوت السنة

بعد أن ركز حاج حمد على منهجية القرآن وحاكميته على السنة، وضرورة الرجوع إلى متن الحديث ومقارنته بالقرآن، حاول أيضا بيان دور وأهمية السنة، والتي سنتطرق لها في هذا المحور، ولذلك سنتناول أولا أهمية السنة في عصر التنزيل، ثم سنعالج قيمة السنة الصامتة.

1.5. أهمية السنة في عصر التنزيل

تعتبر السنة تجسيدا موازيا للقرآن الكريم، لأنها صادرة عن وحي منضبط مع محددات القرآن المنهجية: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّٰ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 1-4]، كما أن السلطة النبوية مستمدة من الله مباشرة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132]، وبهذا فإن السنة لا تخرج عن القرآن¹.

بالإضافة إلى أن قيمة السنة تبرز في كونها تعبيرا عن الصلة والتواصل الحي، وبأنها القدوة العملية بين حقائق الوعي القرآني المطلق وتصورات الوعي البشري النسبي²، وتكمن حقيقة أهميتها في فترة التنزيل على أنها التطبيق للمنهج القرآني وذلك من خلال الحقائق القرآنية التي عملت على بيانها وإبرازها وهي³:

- **عالمية الخطاب:** والذي نتج عن استبدال الخطاب الحضري الذي تميز به الأقباط السابقون، وتوجهت الرسالة المحمدية للأميين العرب والأميين وغير الأميين من غير العرب وللناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28].

- **حاكمة الكتاب:** وذلك بعد أن استبدل الله الحاكمة الإلهية المباشرة من خلال المعجزات والحوار الحسية التي ميزت شرائع الأقباط السابقة، وحاكمة الاستخلاف التي ارتبطت بشرائع الحاكمة الإلهية والتسخير الذي شمل الطبيعة والكائنات المرئية كالتطير وغير المرئية كالجن، والتي كانت في بني إسرائيل ومورست أيضا على عهدي داود وسليمان⁴، ثم جاءت حاكمة الكتاب عن طريق القرآن الكريم المطلق المكنون ليبقى بين أظهر الناس ليرشدهم ويدلهم.

- **شرعة التخفيف والرحمة:** وذلك بعد أن استبدل الله شرعة الإصر والأغلال من خلال التبشير بالرسالة المحمدية القادمة، والتي تحمل شرعة التخفيف والرحمة للناس كافة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

¹ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، أبستمولوجية المعرفة الكونية الإسلامية المعرفة والمنهج، المصدر السابق، ص: 280.

² ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر السابق، ج: 1، ص: 65.

³ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، أبستمولوجية المعرفة الكونية الإسلامية المعرفة والمنهج، المصدر السابق، ص: 279-280.

⁴ ينظر، محمد أبو القاسم حاج حمد، الحاكمة، المصدر السابق، ص: 34-35.

ومن هنا، فالسنة لعبت دورا مهما في عصر التنزيل، إذ كانت التجسيد المتماثل المتوازي مع القرآن، وخصوصا أنها رسخت عملية الخطاب وحاكمية الخطاب وشرعة التخفيف والرحمة.

2.5. القيمة المنهجية للسنة الصامتة

يرى حاج حمد بأن السنة الصامتة موازية ومعادلة للسنة القائلة والفاعلة؛ وهي تعني الأمور التي سكت عنها الرسول أو لم يرد فيها قول أو فعل مثل التفسير الكامل للقرآن؛ فلو ترك لنا الرسول تفسيراً كاملاً، لكان هذا التفسير مقيداً بشروط الوعي التاريخي لتلك المرحلة، ولقيّد إطلاقية الكتاب بظرفية الواقع، ولفقد استمراريته وتفاعله مع الأنساق الحضارية والثقافية المختلفة، وكذلك لم يرد أي قول أو فعل رسولي بخصوص نظام دستوري معين، ولو ألزمتنا بنظام دستوري محدد لما كان يستطيع هذا النظام أن يصلح ويتأقلم مع مجتمعات أخرى، ولبطلت بذلك عملية الإسلام، ولتعارض مع حاكمية الكتاب المطلقة¹، والرسول أيضا لم يصدر عنه فعل أو قول يوحي باستخدام الغلظة أو الشدة مثل الرحم، ولو فعل أو قال ما يمكن وصفه بالإصر والأغلال لتعارض ذلك مع شرعة التخفيف والرحمة، ولبطلت علامات التبشير به²:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ حَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 157-158].

ومن هنا فالسنة الفعلية والقولية توازيان السنة الصامتة، والكل يعدّ تطبيقاً وصلة حية بين الوعي القرآني والوعي البشري.

6. خاتمة:

بعد الذي تقدّم من معالجة للإشكالية، وتحقيقاً للأهداف المسطرة، يمكننا أن نوجز عصارة وثمرة هذا البحث في أن المفكر حاج حمد لا ينفي السنة ولا يأخذ بها بالإطلاق بل يضبطها من خلال التنبيه للمتن، حيث يقوم بمقارنته بالنص القرآني؛ لأن القرآن الكريم بوصفه مصدقاً ومهيماً على الكتب السابقة، فهو مصدق ومهمين على السنة كذلك؛ فالسنة إنما هي بيان للقرآن لا تخرج عنه ولا يمكن أن تكون ناسخة لهيئته، وإذا بطل جزؤه بطل كله استناداً إلى المنهجية الكلية المعرفية. وبما أن فهم النص القرآني عند حاج حمد يعتمد على محاولة فهم المفردة من خلال العائد المعرفي القرآني والاستخدام الإلهي لها دون الاستعمال العربي والتصوير العربي _ الذي إن فسر القرآن به انغلق وأصبح صالحاً لذلك العصر الذي نزل فيه حصرياً لأن الكلمة وتصورها في الذهن تتحكم فيها عقلية وثقافة وخلفية ذلك المجتمع _ فقد سحب حاج حمد ذلك على لغة السنة ومفرداتها، لأن لغة القرآن ولغة النبي هما وجهان لعملة واحدة، وبالتالي يجب التنبيه لمفردات المتن ومقارنتها لمفردات القرآن المحكّمة.

ويمكن أن نوجز ضوابط حاج حمد في التعامل مع السنة النبوية فيما يأتي:

- 1 - السنة النبوية عند حاج حمد هي التطبيق الرسولي المتماثل مع النص القرآني غير الخارج عنه.
- 2 - السنة النبوية تابعة للقرآن ومقيدة إليه، وتبقى نسبية رجوعاً واحتكاماً إلى إطلاقية القرآن الممتدة عبر الزمان والمكان، ومطلقة احتكاماً إلى وقتها وعصرها، ولكي نتبين صحتها اليوم علينا بالرجوع إلى القرآن وحده.

¹ ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المصدر السابق، ج: 1، ص: 63-64.

² ينظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، أبستمولوجية المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، المصدر السابق، ص: 281.

- 3 - السنة النبوية مبينة للقرآن وهي المرجعية التطبيقية لمجتمع الدعوة والمجتمعات الموجودة آنذاك وتحمل إشارات للمجتمعات الآتية، ولكنها في نفس الوقت ليست الشارحة كلياً للقرآن ولا القاضية عليه، بل القرآن هو الحاكم والقاضي عليها.
- 4 - يرفض حاج حمد أن تكون السنة نسخة ومسقطة للقرآن أو أن يكون القرآن ناسخاً للسنة؛ لأن كليهما من مصدر واحد، فيجب أن يسير القرآن والسنة جنباً إلى جنب في توافق وانسجام تامين.
- 5 - أهم آية منهجية اعتمدها حاج حمد لضبط السنة الصحيحة هي التنبيه للمتن ومقارنة مفرداته بمفردات القرآن؛ فلا يعقل أن يكون القرآن ذو مصطلحات علمية دقيقة تحمل دلالات قرآنية ثابتة، وتكون لغة النبي تعتمد على الاستخدام والفهم العربي العائد إلى الثقافة والبيئة الصحراوية، فلغة النبي ولغة القرآن من مشكاة واحدة وهي اللغة القرآنية المتعالية بمفاهيمها عن التصور الذهني العربي.
- 6 - تكمن قيمة السنة في كونها رسخت وطبقت مفاهيم مهمة ورئيسة دعا إليها القرآن؛ وهي عالمية الخطاب (فالرسالة المحمدية للناس كافة وأي خطاب توعوي أو دعوي بعد ذلك يدعو إلى إقصاء الغير فهو مرفوض) وحاكمية الكتاب (فالقرآن كتاب صالح لكل زمان ومكان ومن حق كل واحد أي يقرؤه ويفهمه إذا ما توفرت لديه الضوابط المنهجية المناسبة)، وشرعة التخفيف والرحمة (فالإسلام دين رحمة وسلام وليس دين عنف وخوف وقتل)، ولم يفعل الرسول أو يقل أي شيء يناقض هذه المفاهيم الثلاث.
- ولعل أهم توصية نخرج بها من هذا البحث هي ضرورة حث الباحثين إلى تفعيل هذه الضوابط المنهجية التي وضعها حاج حمد لقراءة السنة النبوية، خصوصاً ما تعلق بمسألة مقارنة لغة الحديث مع لغة القرآن.

7. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- الحاج أوحمنه دواق، الإستمولوجيا الكونية والمنهج المعربي التوحيدى قراءة فى مشروع محمد "أبو القاسم" حاج حمد، (فرجينيا: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، 1436-2015)، 295-296.
- زينب عبد العزيز، الآليات المنهجية للقراءة الحدائثية للنص الدينى _محمد "أبو القاسم" حاج حمد نموذجاً_، المؤتمر الدولى الأول: الأسئلة الكبرى ورهانات الواقع قراءات فى المنظور الإسلامى، 15-16/02/2021، جامعة ذى قار، العراق.
- زينب عبد العزيز، التكافؤ بين المسلم والآخر فى الإسلام _دراسة تحليلية عند محمد "أبو" القاسم حاج حمد، مجلة حقول معرفية للعلوم الاجتماعىة والإنسانية، المجلد 2، العدد 1، 2021، ص: 184.
- زينب عبد العزيز، المفردة القرآنية عند محمد "أبو" القاسم حاج حمد، كتاب مقالات المؤتمر الدولى الافتراضى للقرآن الكرىم واللغة العربىة الدراسات اللغوىة والأدبىة، 2021/03/27، جامعة كردستان، إيران.
- زينب عبد العزيز، ثنائىة العرفان والعقلانىة عند محمد أبو" القاسم حاج حمد _دراسة تأسيسىة_، مقال مقبول للنشر فى مجلة دراسات العلوم الإسلامىة، العدد الأول، المجلد 3، 2021.
- زينب عبد العزيز، ثنائىة الفكر والواقع عند المفكر محمد "أبو" القاسم حاج حمد، وقائع المؤتمر الدولى الأول: التنوع المعربى ودوره فى تمكین الرقى المجتمعى، 2021/02/01، دار الكتب والوثائق الوطنىة ببغداد، العراق.
- زينب عبد العزيز، خصائص اللغة العربىة القرآنية عند محمد "أبو القاسم" حاج حمد، مقال مقبول للنشر فى مجلة باحثون، العدد 13، 2021.

- 5، العدد 41، 2018، ص: 86، 87، 88.
- محمد الشريف الطاهر، التكامل الإستمولوجي في الممارسة المعرفية التوحيدية، أطروحة دكتوراه علوم في الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باتنة 1- الحاج لخضر، 2019-2020، ص: 177، 178.
- طه جابر العلواني، السنة النبوية ونقد المتون، إسلامية المعرفة، بيروت، المجلد 10، العدد 39، 2005، ص: 8. سعيد عبد الجبار، الإطار المرجعي لعلم نقد متن الحديث النبوي الشريف، إسلامية المعرفة، بيروت، المجلد 10، العدد 39، 2005، ص: 54، 55، 58، 61.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، أبستمولوجية المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 1425-2004)، ص: 187، 252، 253، 279، 280، 281.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، إسلامية المعرفة المفاهيم والقضايا الكونية، مجلة تفكر، مجلد 3، العدد 2، السودان، 2001، ص: 1.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 1425-2004)، ص: 189، 314، 315.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، الإسلام ومنعطف التجديد (رؤية منهجية ومعرفية)، مؤتمر الشريعة والاجتهاد، الخرطوم، 2004.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، الانقلاب على الموروث الديني ومنهجية القرآن المعرفية، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، المجلد 15، العدد 47-48، 2011، ص: 75.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، الحاكمة، تح: محمد العاني، (بيروت: دار الساقى، 2011)، ص: 34، 35، 51، 100، 101.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والانسان والطبيعة، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1416-1996)، ج: 1، ص: 50، 53، 54، 55، 57، 58، 60، 61، 63، 64، 65، 66. ج: 2، ص: 94.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، (بيروت: دار الساقى، 2011)، ص: 125، 126، 127، 128، 129.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، حرية الإنسان في الإسلام، (بيروت: دار الساقى، 2012)، ص: 90، 91.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 1424-2003)، ص: 15، 35، 36، 37، 98، 99، 101، 270.
- محمد الأمين بابيز، التأسيس المعرفي للحقيقة الدينية في الخطاب الإسلامي المعاصر أبو القاسم حاج حمد نموذجاً، رسالة دكتوراه، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2017/2018.
- محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاكر، (مصر: مكتبة الحلبي، 1358-1940)، ج: 1، ص: 42.
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: زهير بن ناصر الناصر، (بيروت: دار طوق النجاة، 1422-2001)، كتاب: النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، رقم الحديث: 5200، ج: 7، ص: 32.